جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 36 / حزيران 2023

بلاغة الكتابة التاريخية عند السيد محمد باقر الصدر قراءة في كتاب (فدك في التاريخ)

The rhetoric of historical writing at Sayyid Muhammad Baqir al-Sadr Reading in the book (Fadak in History)

أ.م.د. تغريد عبد الأمير مرهون الخفاجي

Assist. prof. Dr. Taghred Abdul Amir Marhoon Al-Khafaji

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية

University Of Karbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: الكتابة التاريخية، الاستلزام الايدولوجي، الحجاج، التلقي التاريخي.

Keywords: historical writing ،ideological implication ،arguments ،historical reception.

الملخص:

إن النص التاريخي يعد الوثيقة التي تروي أحداث الماضي ليتداول لاحقا ويستدعى كشاهد يمنح المتلقي الانفتاح على تجارب مختلفة تكون دافعا له للتبصر والاعتبار، وإن الأدب يحضر في كل أنواع الخطابات التي ينتجها الإنسان على مر العصور وفي هذا الكتاب يرتكز التدوين التاريخي على صناعة البلاغة وفن العبارة، بعد تهيئة مقومات الكتابة المؤثرة من سمات التلقي التاريخي و استراتيجيات الكتابة التاريخية في الاستلزام الأيدلوجي والحجاج وحبكة سرد الأحداث.

وإن لهذه الكتابة ما للكتابة الأدبية في الشكل والمضمون وتجاوز التعبير عن الواقع بصورة حرفية إلى المتخيل التاريخي الذي يكتسي حلة فنية بفضل أسلوب الكاتب وأثر ذلك كله في استحضار الماضي وتقديمه بصورة مختلفة

Abstract:

The historical text is the document that narrates the events of the past to be circulated later and summoned as a witness that gives the recipient openness to different experiences that will be a motive for him to insight and consideration ،and that literature is present in all kinds of discourses produced by man throughout the ages. After preparing the elements of influential writing from the characteristics of historical reception and strategies of historical writing in ideological implication ،arguments ، and the plot of narrating events.

And this writing has what literary writing has in form and content and goes beyond the expression of reality in a literal way to the historical imaginary that takes on an artistic suit thanks to the writer’s style and the effect of all this in evoking the past and presenting it in a different way

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الأمين وآله الطيبين الطاهرين وبعد...

فإن للتاريخ أهمية كبيرة بعدّه وثيقة تستدعى كشاهد على التجربة البشرية والكونية ؛لأخذ العبرة واكتساب المعرفة، ومجيئه بحلة أدبية تابع للعلاقة القوية بين الأدب والتاريخ وقد أدرك علماؤنا هذا الأمر في وقت مبكر فهم لم يقدموا التاريخ خاليا من التخييل والصنعة الأدبية وما لهذا الأمر من تأثير على المتلقي لاستمالته او لتغيير

فكرته تجاه ما يأتي من شواهد تاريخية أو وقائع من الماضي ومن هنا جاءت فكرة البحث بعنوان (بلاغة الكتابة التاريخية عند السيد محمد باقر الصدر قراءة في كتاب فدك في التاريخ) مقسما على مطالب ابتدأت بسمات التلقي التاريخي عند الصدر، وكيفية تلقيه للأحداث التاريخية وتعامله معها

والمطلب الثاني كان قائما على استراتيجيات الكتابة التاريخية من التحبيك والحجاج والاستلزام الأيدلوجي

أما المطلب الثالث فبحث في الأساليب البلاغية التي توشي الكتابة التاريخية بألوان الإبداع والتخييل . ومن الله التوفيق

المطلب الأول // سمات التلقي التاريخي عند السيد الصدر في كتاب فدك في التاريخ

مع وجود عنصر الاعتبار بالوقائع التاريخية وتفاعل المتلقي معها ينشأ من ذلك أصناف للتلقي فمنهم من يتفاعل مع التاريخ بفعل الاستلاب والاندهاش ومنهم من يعيد تشكيل الحدث التاريخي من جديد عبر التخييل، وبعضهم يقف تجاه أحداث الماضي محللا ومفسرا ويكوّن رؤية تتسم بالموضوعية يمكن الإفادة منها .

والسيد الصدر بدا في كتابه يحمل كل تلك السمات في تلقيه لقضية فدك التاريخية أولها قائم على الدخول للبوابة التاريخية عبر متعة الاكتشاف والمعرفة لأخذ العبرة والإفادة أو كما تسمى بالقراءة الفضولية التي تمنح المتلقي فرصة التجوال بحرية في المخفي عنه واقعيا و هو عالم الأمراء السلاطين والساسة والصراعات ونتائجها والانكسارات ومواطن الضعف والقوة مما يزيد المتلقي معرفة ليس في الماضي فحسب بل في المحاكمة وإبداء الرأي وإعادة ترتيب واقعه وعليه تبدأ قناعاته بالتبدل أو الرسوخ أو التبلور[1] يقول السيد الصدر في مقدمة كتابه : ((توفرت فيها على درس مشكلة من مشاكل التاريخ الإسلامي، وهي مشكلة فدك، والخصومة التاريخية التي قامت بين الزهراء صلوات الله عليها والخليفة الأول ...وكانت تتبلور في ذهني استنتاجات وفكر فسجلتها على أوراق متفرقة، حتى إذا انتهيت من مطالعة مستندات القضية ورواياتها ودرس ظروفها وجدت في تلك الوريقات ما يصلح لدراسة كافية للمسألة فهذبتها ورتبتها على فصول اجتمع منها كتيب صغير))[2]

وقد قامت فصول الكتاب على إنتاج المعرفة التاريخية بمسألة فدك والإحاطة بجميع جهاتها الفكرية والسياسية وحتى الدينية في محاولة لإشباع الرغبة المعرفية ومآرب أخرى تكشف عنها القراءات الأخرى، ومنها التخييلية التي تقوم بتشكيل نص جديد يطور الحدث التاريخي وتنقله إلى زمن روائي تخييلي يتداخل فيه الماضي والحاضر والمستقبل بفعل عمليتي الاسترجاع والاستباق [3] فهو((لم يتعامل مع النص التاريخي بوصفه وثيقة علمية، بل بوصفه إضاءة لفواعل في التاريخ قدمت جهدا كبيرا في حياتها لصالح الأمة)) [4] وهذه الصنعة الفنية

التي تنشد تصوير الماضي في أفق الحاضر محصلتها التأثير على المتلقي بهدف إمتاعه وإقناعه، وقد ابتدأ الكتاب بها تحت عتبة (على مسرح الثورة)في تصوير الحادثة التاريخية تصويرا فنيا يحاكي الواقع ويعمل على إعادة التشكيل والصياغة قائلا : ((وقفت لا يخالجها شك فيما تقدم عليه، ولايطفح عليها موقفها الرهيب بصبابة من خوف وذعر ...ولا تساورها هاجسة من هواجس القلق والارتباك ... وقد اختارت الطريق المتعب من الطريقين الذي يشق سلوكه على المرأة بطبيعتها الضعيفة لما يكتنفه من شدائد ومصاعب تتطلب جرأة أدبية وملكة بيانية مؤثرة وقدرة على صب معاني الثورة كلها في كلمات وبراعة فنية في تصوير النقمة، ونقد الأوضاع القائمة تصويرا ونقدا يجعلان في الألفاظ معنى من حياة...)) [5] تصور لنا هذه الكتابة موقف الزهراء النبيل المدافع عن الحقوق المسلوبة بكلمات من نور أضفى إشعاعه على سرد الحوادث التاريخية لتخرجه من عرض الحقيقة عارية الى عرضها بثوب جميل يتزين بألوان من الصياغة المبدعة ثم يقول : ((وتجردت الزهراء في اللحظة التي اختمرت فيها ثورة نفسها عن دنيا الناس واتجهت بمشاعرها الى تلك الذكرى الحية في نفسها لتستمد منها قبسا من نور في موقفها العصيب وصارت تنادي : إلي يا صور السعادة التي أفقت منها على شقاء لا يصطبر عليه ...إلي يا أعز روح عليّ وأحبها إلي ..

إلي يا أبي أناجيك إن كانت المناجاة تلذ لك وأبثك همومي كما اعتدت أن أفعل في كل حين، وأخبرك أن تلك الظلال الظليلة التي كانت تقيني من لهيب هذه الدنيا لم يعد لي منها شيء

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب))[6]

وهنا تتوقف الكتابة التاريخية عن سرد الوقائع كما حدثت إلى تعبير استدعت فيه الماضي الجميل ووجود من كانوا الدعامة القوية لخيمتها ومن كانوا مصدر سعادتها، تعبير فيه إنشاء وتخييل ويصور بث الزهراء للأقربين على قلبها وخاصة أبيها تشكو حزنها وألمها من الخذلان والاستلاب السلطوي الذي مورس ضدها ويقول في موضع آخر على لسان الزهراء بصورة المتخيل: ((إلي يا ذكريات الماضي العزيز حدثيني حديثك الجذاب ورددي على مسامعي كل شيء لا تثيرها حربا لا هوادة فيها على هؤلاء الذين ارتفعوا أو ارتفع الناس بهم إلى منبر أبي ومقامه ولم يعرفوا لآل محمد (صلى الله عليه وآله) حقوقهم، ولا لبيتهم حرمة تصونه من الإحراق والتخريب)) [7] وهذا الانتهاك لحرمات الرسول و تكسير المقدس اثر في نفس الزهراء والمرتضى وأشعل الحزن في النفوس تجاه ضياع الحقوق والخلافة الصالحة وبهذا التخييل يظهر السرد التاريخي بمظهر بلاغي، إذ يتحرر في هذا النوع من التلقي ((النص التاريخي من سكونيته الزمانية والمكانية ومن سمته التوثيقية تدفع القارئ التخييلي إلى الشروع في كتابة جديدة))[8]

أما عن التلقي الآخر فـ ((يشكل القارئ الناقد عنصرا مهما في صور العودة إلى التراث من اجل التبصر فيه بعقلانية وليس بانفعال)) [9] ويوسم الصدر في مواضع أخرى من كتابه أيضا بأنه قارئ ناقد ومتلقٍ واعٍ له رؤية وموقف تجاه الحدث التاريخي،فنراه في بعض المواضع يخرج عن الذات ويتعامل بموضوعية تجاه الوقائع التاريخية ويعرضها ويناقشها فقد ((كشف الشهيد عن حقائق تاريخية عدة في كتابه (فدك في التاريخ)، وأماط اللثام عنها بلهجة علمية وأسلوب موضوعي فتناول أكثر من محور في كتابه بما له دخل في معالجة أمر الخصومة، فبحث بأروع ما يمكن معالم سياسة الخليفتين الأول والثاني تجاه أهل البيت وأوضح الأسس التي تقوم عليها وأسهب البحث على نحو لم يسبق له مثيل في أمر السقيفة وكذلك عالج بحثا من أهم البحوث التاريخية وهو أمر الفتوحات الإسلامية فألقى عليها الأضواء الكاشفة وفي كل هذه الأبحاث تجرد عن المواقف المسبقة والعواطف الجياشة التي قد تؤدي بالباحث إلى متاهات مظلمة)) [10] لذلك نراه يحض على التجرد من الأنا في محاكمة التاريخ والتحرر من قيود الذات إلى رحاب الموضوعية والتفكير العقلاني قائلا: ((فإذا كنت تريد أن تكون حرا في تفكيرك، ومؤرخا لدنيا الناس لا روائيا يستوحي من دنيا ذهنه ما يكتب، فضع عواطفك جانبا أو إذا شئت فاملأ بها شعاب نفسك فهي ملكك لا ينازعك فيها احد، واستثن تفكيرك الذي به تعالج البحث فإنه لم يعد ملكك بعد أن اضطلعت بمسؤولية التاريخ وأخذت على نفسك أن تكون أميناً ليأتي البحث مستوفيا لشروطه قائما على أسس صحيحة من التفكير والاستنتاج)) [11]

فناقش بموضوعية حال المسلمين أيام الخليفتين الأول والثاني وكيف أنهم كانوا لا يتعرضون للنقد والمحاكمة مهما عملوا لأنهم بناة ذلك العصر وتجريدهم من شيء من مناقبهم تجريد لذلك العصر عن مثاليته التي يعتقدها المسلمون، أما رجالات الحزب المعارض – أصحاب الإمام علي (عليه السلام) – كانوا يقفون بالمرصاد بوجه كل زلل وانحراف مشوه للون الحكم [12].

ويناقش مسألة الفتوحات الإسلامية بأن مجدها لا يسجل للحكومة القائمة أيام الخليفتين فقط ؛ لأن شؤون الحرب ومعداتها وأساليبها يتهيأ بعمل أشبه ما يكون بالعمل الجماعي من الأمة الذي تعبر به عن شخصيتها تعبيرا عمليا خالدا ولا يعبر عن شخصية الحاكم الذي لم يصل إليه من لهيب الحرب شرر، ولم يستقل فيه برأي[13]، وبذلك يكون المتلقي الناقد رؤيته للحوادث التاريخية عبر المناقشة والتحليل وتقييم التراث،وبقي من أمر الفتوحات ما أشار اليه الصدر قائلا: ((في أمر الفتوحلت شيء آخر هو الوحيد الذي كان من وظيفة الحاكمين وحدهم القيام به دون سائر المسلمين الذين هيؤوا بقية الأمور وهي ما يتلو الفتح من بث الروح الاسلامية وتركيز مثاليات

القرآن في البلاد المفتوحة وتعميق الشعور الوجداني والديني في الناس ... ولا ادري هل يمكننا أن نسجل للخليفتين شيئا من البراعة في هذه الناحية أو أن نشك في ذلك كل الشك ...))[14]

وتنشأ بلاغة الاعتبار في الخطاب التاريخي من الحدث نفسه بعيدا عن هيمنة المؤرخ واستلابه، فنجد السيد الصدر قد عرّف بفدك وتاريخها الإسلامي المضطرب على مر العصور الذي لا يستقيم على حد ولا يجمع على قاعدة وإنما حاكت أكثره الأهواء على ما اقتضت المطامع والسياسات الوقتية [15] ليخلص بذلك في النهاية إلى رؤيته حول فدك قائلا : ((إن فدكا لم تكن أرضا صغيرة أو مزرعا متواضعا كما يظن البعض، بل الأمر الذي اطمئن إليه أنها كانت تدر على صاحبها أموالا طائلة تشكل ثروة مهمة))[16]هذا من جهة إيراد سرد تاريخي لمكان شهد نزاعات كثيرة يمتد وجودها الرمزي إلى اليوم أما من جهة ذكر الوقائع التاريخية فيناقش الصدر مسألة نحلة رسول الله (صلى الله عليه واله) فدك للزهراء في كتابه تحت عتبة محكمة الكتاب قائلا : فقد ادعت الصديقة النحلة وشهد بذلك قرينها وأم أيمن فلم يقبل الخليفة دعواها ولم يكتف بشاهديها وطالبها ببينة كاملة وهي رجلان أو رجل وامرأتان

1- والنقطة الأولى التي نؤاخذ الخليفة الأول عليها هي وقوفه موقف الحاكم في المسألة مع أن خلافته لم تكتسب لونا شرعيا الى ذلك الحين على أقل تقدير ...

2- والملاحظة الثانية في الموضوع هي أن فدكا إذا كانت في حيازة الزهراء عليها السلام فلاحاجة للبينة ... [17]

مادامت فدك في حيازتهم وهذه الحيازة دليل الملكية، وبذلك نتبين بلاغة التاريخ في سياقه الموضوعي بعيدا عن الاستلاب وسياسة فرض الأفكار .

فالصدر في كتابه لم يسرد الوقائع التاريخية فحسب بل كانت كتابته ممارسة اجتماعية موجهة نحو هدف مقصود لأن مثل هذه الخطابات التاريخية عبارة عن ((ممارسات تشكل على نحو منظم الأشياء التي يتحدث عنها)) [18]

المطلب الثاني // استراتيجيات الكتابة التاريخية في كتاب فدك في التاريخ

أولها الحبكة فالسيد الصدر أنتج خطابا تاريخا يحمل التخييل والمناقشة والبحث والنقد بحبكة مميزة وتوليفة للأحداث بطريقة جديدة

والحبكة تعرف ((على أنها مجموعة من التوليفات التي تتحول بواسطتها الوقائع إلى قصة)) [19] قصة مواجهة السلطة واسترداد الحقوق قصة ضياع حكم إلهي خُتِم من السماء فابتدأت موضوعات الكتاب بتوليفة من العتبات ذات دلالات ثورية منها (على مسرح الثورة) و(فدك) و(تأريخ الثورة) و(قبسات) و(محكمة الكتاب) [20]

وموضوعات حول تاريخ المطالبة بفدك تجمع بين التاريخ والتخييل والأدب تبعث النفوس على أن هناك حق مسلوب تطالب به بنت نبي لم تنفذ وصيته .

ابتدأت بقول الزهراء في محاججتها للخليفة : ((فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ...)) [21]

لتبين بذلك أن التجربة الإنسانية تستمر بإعادة التشكيل .

وأما حجاجية الكتابة التاريخية فتنبع من آلياتها ومقصديتها فتقوم بعرض مجموعة من الحجج تنتهي الى نتيجة معينة يتبناها المؤرخ وتبتعد بذلك هذه الكتابة عن الفن .

والحجاج في الخطاب يقوم على تقنيات ((تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم، ويمكن أن تكون وظيفته محاولة جعل العقل يذعن لما يطرح عليه من أفكار أو يزيد في درجة الإذعان إلى درجة تبعث على الفعل المرغوب)) [22]

والصدر حاجج بخطابه التاريخي مسألة فدك وتفرعاتها من مشكلة الإرث النبوي ومنع الخليفة إياه للزهراء بحجة أن الأنبياء لا يورثون، وخلافة الأمة ورمزية القضية وأبعادها .

ففي مسألة الإرث قال : ((لا ريب أن تركة النبي (صلى الله عليه و آله وسلم) لو كانت لا تورث لما اختص الحكم بالأموال المعينة المتروكة بالفعل بل لثبت لكل ملك يتركه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم))) [23]

وقد عرض الصدر ادعاءات الخليفة في منع فدك للزهراء وحاجج بطريقة تروم الإقناع مفندا هذه الادعاءات قائلا: وقد ادعى أمرين :

احدهما أن فدكا صدقة فلا تورث، والآخر أن النبي (ص) لا تورث أملاكه ويناقشه الصدر في ذلك :[24]

الأول أن الخليفة لم يصدق روايته في بعض الأحايين

والثاني أن من الإسراف الاحتمال أن نجوز إسرار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الخليفة بحكم تركته وإخفائه عن بضعته وسائر ورثته وكيف اختص الخليفة دون غيره بالحكم المذكور مع أن النبي لم يكن من عادته الاجتماع بأبي بكر وحده

الثالث أن عليا هو وصي رسول الله (صلى الله عليه وآله) للحديث الذي ارتفع به رواته إلى درجة التواتر واليقين وشاع في روايات أكابر الصحابة، فالوصاية من الأوسمة الإسلامية الرفيعة التي اختص بها الإمام دون غيره، فهو وصيا على تركة النبي ووصي النبي عليها وهو موجود وهو أعرف بحكمها الشرعي ولا داعي لتحكم الخليفة بها

الرابع إن إنكار الخليفة لملكية رسول الله كان فيه التسرع الشيء الكثير ؛ لأن فدكا لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب بل استسلم أهلها خوفا ورعبا باتفاق أعلام المؤرخين من الفريقين وكل ارض يستسلم أهلها على هذا الحال فهي للنبي (ص) خالصة وقد أشار القرآن إلى أن فدكا للنبي (صلى الله عليه واله) بقوله تعالى : ((وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه بخيل ولاركاب)) [25]

ليخلص الصدر إلى نتيجة أن صيغة الحديث الذي اورده الخليفة بعدم توريث الأنبياء لو كانت صريحة فيما أراد لها من المعاني لناقضت القران الكريم ومصيرها الإهمال فالقران يقول : ((هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب ...))[26]

ولا يمكن أن نتعذر عن الخليفة أنه يجوز اختيار أحد النصين المتناقضين وتنفيذه كما عمل بعضهم ؛ لأن المعارض للقرآن باطل بلا ريب لأنه الحق وهل بعد الحق إلا الضلال [27] .

ويخلص الصدر بنتيجة كبرى بعد عرض حججه في سرده التاريخ لمسألة فدك قائلا : ((فإذا كانت الزهراء صادقة في رأيه ولم يكن ولم يكن في الناس من ينازعها فليس للخليفة أن ينتزع فدكا منها وتحديد الحكم بالبينة الخاصة إنما يحرم الحكم ولا يجيز انتزاع الملك من صاحبه، وإذن فعدم جواز حكم الحاكم على وفق علمه لا يخفف من صعوبة الحساب ولا يخرج الخليفة ناجحا في الامتحان)) [28]

فعن طريق محاورة النص ومحاججته بموضوعية تظهر بلاغة السرد التاريخي الاعتبارية للإفادة منها لا الاستلاب لها، ففدك لا تمثل تلك القرية الصغيرة جغرافيا بل هي قضية امة إسلامية مسلوبة الحق، فهي براديغمات[29] سياقية في الحجاج التاريخي تربط الحادثة التاريخية بحوادث أخرى وتبرز عدم استقلاليتها عن بعضها فيذكر في كتابته التاريخية أن مطالبة الزهراء لفدك ((هي الثورة على أسس الحكم والصرخة التي أرادت فاطمة أن تقتلع بها

الحجر الأساسي الذي بُني عليه التاريخ بعد يوم السقيفة...فالمسألة إذن ليست مسألة ميراث ونحلة إلا بالمقدار الذي يتصل بموضوع السياسة العليا وليست مطالبة بعقار أو دار، بل هي في نظر الزهراء مسألة إسلام وكفر، ومسألة إيمان ونفاق ومسألة نص وشورى)) [30]

وفي الكتاب بيان للمنحى العاطفي للحجاج عن طريق الباتوس يسعى السرد التاريخي فيه للإقناع والتأثير على الآخر فيذكر الصدر أن الزهراء وجهت جهودها في كسب معركة القلب قائلا : ((فإنه السلطان الأول على النفس والمهد الطبيعي الذي تترعرع في روح الثورة، وقد نجحت الحوراء في تلوين صورة فنية رائعة تهز المشاعر وتكهرب العواطف وتهيمن على القلوب ...حين خاطبت الأنصار بقولها : ((يا معشر البقية وأعضاد الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معونتي، والغمزة في حقي، والسنة عن ظلامتي أما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول : المرد يحفظ في ولده، سرعان ما أحدثتم وعجلان ما أتيتم...)[31])) [32]

وهنا يتناول سرد الواقعة التاريخية بطريقة تهدف إلى إثارة انفعال القارئ بسبب ما تضمنته من شحنة عاطفية واستعمال الألفاظ الانفعالية .

أما عن الاستلزام الإيدلوجي فيرى هايدن وايت أن التاريخ يحتوي على تضمينات إيدلوجية لا يخلو منها أي خطاب إيدلوجي [33]، ويعد الكتابة التاريخية إنتاجاً لملفوظات إنجازية ذات طبيعة بلاغية ويتمثل وقعها في البناء الإيدلوجي للحقيقة [34]، وقد ضمن السيد الصدر كتابته للتاريخ تضمينات إيدلوجية مهمة قائلا : ((فالممعن في دراسة خطوات النزاع وتطوراته والأشكال التي لا يفهم منه ما يفهم من قضية مطالبة بأرض بل يتجلى له منها مفهوم أوسع من ذلك ينطوي على غرض طموح يبعث إلى الثورة ويهدف إلى استرداد عرش مسلوب وتاج ضائع ومجد عظيم وتعديل امة انقلبت على أعقابها .

وعلى هذا كانت فدك معنى رمزيا يرمز إلى المعنى العظيم ولا يعني تلك الأرض الحجازية المسلوبة وهذه الرمزية التي اكتسبتها فدك هي التي ارتفعت بالمنازعة من مخاصمة عادية منكمشة في أفقها محدودة في دائرتها إلى ثورة واسعة النطاق رحيبة الأفق...))[35]

وبلاغة الكتابة التاريخية هنا تكمن بما فيها من تضمينات إيدلوجية وتشكيل سردي مؤثر يكون فيه وعي المؤلف حاضرا ليضع بين يدي المتلقي المؤشرات التي تجمع الوقائع التاريخية على منحى دلالي معين.

المطلب الثالث // الأساليب البلاغية في الكتابة التاريخيةفي كتاب فدك في التاريخ

وفيه يعمد المؤرخ على الكتابة بلغة رصينة ومؤثرة بالمتلقين تشع بألوان الأساليب البلاغية المختلفة ؛ ليتفاعل معها المتلقي وينجذب إليها ليرفع من فاعلية الإقناع لديه بالفكرة المطروحة والتأثير بالقضية التاريخية المتناولة .

وقد أدرك العلماء الأوائل أهمية كتابة التاريخ بصورة أدبية بلاغية بارعة لقوة العلاقة بين التاريخ والأدب وفي هذا الأمر ينقل الجرجاني عن الجاحظ أنه قال عن رواة الأخبار : ((ورأيت عامتهم فقد طالت مشاهدتي لهم وهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق)) [36]

امتلكت الكتابة التاريخية عند السيد الصدر طاقة أسلوبية وبلاغية مميزة مغلفة بإطار التخييل تشوق القارئ وتعمل على كسب الإقناع والتأثير قائلا: ((ارتفعت الزهراء بأجنحة من خيالها المطهر إلى آفاق حياتها الماضية ودنيا أبيها العظيم التي استحالت حين لحق سيد البشر بربه إلى ذكرى في نفس الحوراء متألقة بالنور تمد الزهراء في كل حين بألوان من الشعور والعاطفة والتوجيه وتشيع في نفسها ضروبا من البهجة والنعيم ...)) [37]

يكتنز النص بأشعة بلاغية تضيء ما اعتم من سرد مباشر للحقائق فتشرق على القلوب لتؤثر فيها، وشمس هذه الأساليب الاستعارة المكنية فقد صور المؤرخ ذكريات الأبوة النبوية وهي شيء معنوي صورها وكأنها إنسان يتوشح بالنور يكون مصدرا للأمان والحنان والإرشاد والفرحة وكأنها تريد أن تبقى دوما في حالة الماضي ولا تريد أن تحيا الواقع لأنه مزرٍ ومؤلم ولا يوجد فيه من كانوا مصدرا للسعادة .

ويستمر في تشخيص الذكريات وبث الحياة فيها وكأنها انسان يخبر ويتحدث قائلا: ((خبريني يا ذكريات أبي العزيز أليس أبو بكر هو الذي لم يأتمنه الوحي على تبليغ آية إلى المشركين ؟ وانتخب للمهمة عليا فماذا يكون معنى هذا إن لم يكن معناه أن عليا هو الممثل الطبيعي للإسلام الذي يجب أن تسند إليه كل مهمة لا يتيسر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)مباشرتها، إني لأتذكر بوضوح ذلك اليوم العصيب الذي أرجف فيه المرجفون لما استخلف أبي عليا على المدينة وخرج إلى الحرب فوضعوا لهذا الاستخلاف ما شاؤوا من تفاسير، وكان عليا ثابتا كالطود لا تزعزعه مشاغبات المشاغبين)) [38]

وهنا بالاستعارة المكنية التي تقوم على حذف المشبه به وذكر شيء من صفاته [39]

تتشخص الذكريات بصورة متحدث مرجع يخبر الزهراء عن الذي حاز شرف الحظوة عند النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وهو الإمام علي عليه السلام لإيمانه وإخلاصه، وثباته على الحق فهو يقاوم كل عوامل الاضطراب التي واجهها كما يثبت الطود بوجه الأعاصير وهو تشبيه مرسل تام الأركان.

وفي تصويره لخطبتها ونقدها للأوضاع القائمة قال : ((لتكون الحروف جنود الثورة الخيرة، وسندها الخالد في تاريخ العقيدة ولكنه الإيمان والاستبسال في سبيل الحق الذي يبعث في النفوس الضعيفة نقائضها، ويفجر في الطبائع المخذولة قوة لا تتعرض لضعف ولا تردد))[40]

فجعل الحروف جنود بطريقة التشبيه البليغ الذي تحذف فيه الأداة ووجه الشبه فتنشأ دعوى اتحاد بين المشبه والمشبه به وتأويله يحتاج الى كد ذهن ويسميه القزويني البعيد لغرابته[41] بليغا لأنه بلغ القبول من القلوب [42] , فيصور الحروف والكلمات في الخطاب المواجه وكأنها وسائل دفاعية تسترد الحقوق المسلوبة.

وقال في موضع آخر : ((وكان حولها نسوة متعددات من حفدتها ونساء قومها كالنجوم المتناثرة يلتفون حولها بغير انتظام، وهن جميعا سواسية في هذا الاندفاع والالتياع، وقائدتهن بينهن تستعرض ما ستقدم عليه من وثبة كريمة تهيء لها العدة والذخيرة، وهي كلما استرسلت في استعراضها هذا ازدادت رباطة جأش وقوة جنان... كأنها استعارت في لحظتها هذه قلب رجلها العظيم، لتواجه به ظروفها القاسية وما حاكت لها يد القدر)) [43]

وهنا يصور النسوة المجتمعات حولها ومن يحملن القضية معها يشبههن بالنجوم المتناثرة بوسط ظلمة البشرية المتأمرة على البيت المحمدي، مضيئات كالنجوم لأنهن يستمدن نورهن وهدايتهن لدرب الحقيقة من شمس الزهراء، ثمر يصور قوتها وصبرها بالجمع بين الأشياء المتناسبة وتقنية مراعاة النظير فقد جمعت الزهراء بين رباطة الجأش وقوة الجنان لتواجه ما حاكته يد القدر، فقد صور القدر وكأنه شرير لا تنتج يده سوى المكائد والغدر على سبيل الاستعارة المكنية.

وقال في موضع آخر : ((ودفعتها أفكارها في وقفتها تلك إلى الماضي القريب يوم كانت موجات السعادة تلعب بحياتها السعيدة، ويوم كانت نفس أبيها يصعد، ونسمه يهبط، ويوم كان بيتها قطب الدولة العتيد، ودعامة المجد الراسخة المهيمنة على الزمن الخاشع المطيع)) [44]

وهنا تتجلى الكناية عن نسبة بصورتها المعبرة يصور البيت المحمدي العلوي وهو يختزل المجد المهيمن على الزمان والذي وسمه بالخشوع وصفة للعقلاء أجراها على الزمان بطرقة الاستعارة المكنية .

وقال : ((ثم وصلت حيث بلغت سلسلة الزمن فيواجهها الواقع العابس وإذا بالزمان غير الزمان ...))[45]

وبالاستعارة المكنية تشخص لنا الكتابة التاريخية الواقع وهو مجموعة الظروف التي تواجه الإنسان تصوره وكأنه عابس فتعطيه صفة من صفات الآدميين بيانا من المؤرخ لواقع الزهراء المؤلم آنذاك.

ويستمر في تجسيم المعنويات في كتابته قائلا : ((خسرت الزهراء أقدس النبوات و الأبوات وأخلد الرئاسات والزعامات بين عشية وضحاها، فبعثها نفسها المطوقة بآفاق من الحزن والأسف إلى المعركة ومجالاتها ومباشرة الثورة والاستمرار عليها)) [46]

فقد جسم الحزن والأسف وكأنه طوق يلف النفس ويؤذيها بصورة استعارية معبرة، وجناس بين(نبوات و أبوات) التقارب الصوتي فيه يوحي بالتقارب الدلالي .

الخاتمة

في النهاية أود أن أبين أنّ الكتابة التاريخية عند السيد الصدر جمعت بين أساليب واستراتيجيات أسهمت في تشكيل بلاغتها ورفع فاعليتها في الإقناع والتأثير .

- بدا الصدر في كتابه وهو يجمع أكثر من سمة من سمات التلقي فقد دفعه حب المعرفة والاكتشاف للخوض في غمار التاريخ ثم بدا في بعض المواضع مؤرخا يجمع بين التاريخ والتخييل وفي المواضع الأخرى بدا مناقشه ومحللا بعض المواقف التاريخية ويتجلبب بجلباب الموضوعية والابتعاد عن الذات وتأثيرها في صناعة الخطاب .
- استعمل في كتابه استراتيجيات خطابية أهمها الحجاج والاستلزام يجعل القارئ يشعر وكأنه كتب كتابه من أجلها فناقش وحلل وجادل وفصّل في قضية فدك والمسائل المحيطة بها .
- وكتابته التاريخية مكتنزة بالأساليب البلاغية التي تشوق المتلقي وتعمل على كسب الإقناع والتأثير.

الهوامش:

1 – ينظر : النص التاريخي وبلاغة الاعتبار مقاربة في التلقي ، يوسف اسماعيل ضمن بلاغة الخطاب التاريخي : 69.
2 – فدك في التاريخ ، محمد باقر الصدر : المقدمة.
3 – ينظر : خطاب الحكاية، بحث في المنهج ، جيرارجنيت، ترجمة : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي : 45.
4 – النص التاريخي وبلاغة الاعتبار مقاربة في التلقي ضمن بلاغة الخطاب التاريخي: 76.
5 – فدك في التاريخ : 7.
6 – فدك في التاريخ : 12–13.
7 – المصدر نفسه : 13.
8 – النص التاريخي وبلاغة الاعتبار ضمن بلاغة الخطاب التاريخي : 73.
9 – المصدر نفسه : 77.
10 – محمد باقر الصدر حياة حافلة فكر خلاق ، محمد طاهر الحسيني : 595.
11 – فدك في التاريخ : 29.
12 – ينظر: المصدر نفسه: 32–33.
13 – ينظر : المصدر نفسه : 33.
14 – فدك في التاريخ : 34.
15 – ينظر: المصدر نفسه : 24.

16- المصدر نفسه : 25.

17 - المصدر نفسه : 157-158.

18- حفريات المعرفة ، ميشيل فوكو : 54.

19 - سلطة السرد بين تاريخ التخييل وتخييل التاريخ ، مصطفى الورياغلي ضمن بلاغة الخطاب التاريخي : 90.

20 - ينظر : فدك في التاريخ : 5و19 و27و95و109.

21 - الاحتجاج ، الشيخ الطبرسي : 72.

22 - علم النص ، فان دايك : 234.

23 - فدك في التاريخ :139.

24 - ينظر : المصدر نفسه : 142و143و144و145

25 - سورة الحشر : 6.

26 0 سورة مريم : 6.

27 - ينظر : فدك في التاريخ : 157.

28 - المصدر نفسه : 168.

29 - وهي الأنموذج المعرفي ينظر: البراديغمات المسيطرة في علوم الإعلام الاتصال وإشكالياتها المعرفية،.حسين السعد :2.

30 - فدك في التاريخ : 44-45.

31- الاحتجاج :72.

32 - فدك في التاريخ : 136

33- ينظر: بلاغة التاريخ عند هايدن وايت ، بو شعيب الساوري ضمن بلاغة الخطاب التاريخي:64.

34 - ينظر: سلطة السرد بين تاريخ التخييل وتخييل التاريخ ، ضمن بلاغة الخطاب التاريخي : 87.

35 - فدك في التاريخ : 44.

36- دلائل الإعجاز : 22.

37 - المصدر نفسه : 12.

38 - فدك في التاريخ : 13.

39 - ينظر: قاموس قواعد البلاغة وأصول النقد والتذوق : 47.

40 - المصدر نفسه :7.

41 - ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة : 193.

42 - ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح :3/ 459، وحاشية الدسوقي على شرح السعد 457/3

43- فدك في التاريخ : 8.

44 - المصدر نفسه : 9.

45 - فد في التاريخ : 9.

46 - المصدر نفسه: 11.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي، مؤسسة النبراس، النجف الأشرف، د.ط، د.ت
- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وضع حواشيه ابراهيم شمس الدين ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003.
- البراديغمات المسيطرة في علوم الإعلام والاتصال وإشكالياتها المعرفية، د.حسين سعد، 2011
- بلاغة الخطاب التاريخي، إعداد:محمد مشبال،ط1، دار كنوز المعرفة،عمان،2018-1439
- حاشية الدسوقي على مختصر السعد شرح تلخيص المفتاح، محمد بن أحمد الدسوقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.
- حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، 2002، د. ط د . ت .
- خطاب الحكاية بحث في المنهج، جيرار جنيت، ترجمة : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي،ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،د.ت
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (471هـ) تحقيق : محمد بن تاويت، المطبعة المهدية تطوان، د. ط، د.ت
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح من كتاب شروح التلخيص ، بهاء الدين أحمد بن علي السبكي ، تحقيق : د. ابراهيم خليل ابراهيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .
- علم النص، فان دايك، ترجمة: سعيد حسن البحيري د. ط، د.ت
- فدك في التاريخ، محمد باقر الصدر، المطبعة الحيدرية، النجف، 1955-1374
- قاموس قواعد البلاغة وأصول النقد والتذوق ، مسعد الهواري ، مكتبة الايمان، المنصورة – مصر ، د.ت .
- محمد باقر الصدر حياة حافلة فكر خلاق، محمد طاهر الحسيني، دار السلام، بيروت، ط3، 2010-1431